مقاربة الظاهرة الاتصالية في مجال العلوم الإنسانية

- تحليل مواقف اتصالية لـ Pierre Daco –

Communicative phenomenon approach in the field of humanities
Analysis of communicative positions proposed by Pierre Daco

د. فركوس نظيرة

جامعة باجي مختار – عنابة – الجزائر –

Dr . Ferkous Nadira

Badji Mokhtar University – Annaba- Algeria –

تاريخ الاستلام:2023/03/27 تاريخ القبول:2023/11/18 تاريخ النشر:2024/04/30

ملخص:

تعتبر علوم لإعلام و الاتصال من الموضوعات حديثة النشأة و التي ظلت تبحث لنفسها عن مسار مستقل عن باقي العلوم الإنسانية و الاجتماعية سعيا لخلق التفرد و تأطير موضوعاتها و مناهج بحثها لتتميز عن باقي العلوم غير أن ذلك يوقع الباحثين في كل مرة في إشكالات عديدة منها تعذر التحديد الدقيق للموضوعات التي تندرج ضمن هذه العلوم ، تحديد المقاربات النظرية المناسبة لتناول هذه الموضوعات حتى تتخذ الصيغة العلمية و تحديد النظريات و المناهج الملائمة لدراستها و تحليلها ، كلها مسائل تستدعي التحليل و النقاش و فهم كيفية بناء المواضيع العلمية في مجال الإعلام و الاتصال ضمن حقل العلوم الإنسانية ، الأمر الذي سوف نحاول توضيحه انطلاقا من تحليل مواقف اتصالية من تصور المعالج النفسي البلجيكي بيار داكو Pierre Daco و التي توصلنا من خلالها إلى نتيجة أساسية مفادها : لا وجود لمواضيع علمية اتصالية منعزلة عن باقي العلوم الإنسانية ، فمعطيات الموقف الاتصالي تشارك في تشكيله مكونات أخرى مستمدة من علوم أخرى ، فقط التموضع الإبستيمولوجي للباحث هو الذي يحدد معالم الموضوع من المنظور الإعلامي و الاتصالي .

الكلمات المفتاحية : موضوع الإعلام و الاتصال ، التوضع الإبسيمولوجي ، بناء الموضوع العلمي .

Abstract:

Communication science is considered as one of recent subjects that took time to find an independent record from other social sciences and humanities for singularity and subjects supervision as well as research methodologies in order to be distinguished from other sciences.However, researchers encounter several problems such as impossibility of exact determination of subjects related to this science and determination of adequate methodologies and theories for study and analysis, all are problems need to be analyzed and discussed and to understand how to construct scientific subjects in the field of telecommunication among humanities, this is what will try to precise starting from the analysis of communicative positions that the Belgian psychotherapist Pierre Daco imagined where we draw a basic result that there is no isolated communicative scientific subjects from other humanities since data of communicative position participates in its composition other components resulted from other sciences, only the epistemological localisation of researcher will determine landmarks of subject from media and communicative point of view.

Keywords : Information and Communication objects , epistemological position , the constitution of the scientific object .

1- مقدمة :

من المسلمات المأخوذ بها في منهجية بناء الموضوعات العلمية هو تعذر بناء موضوع دراسة بعيدا عن تساؤلات البحث أو تحديد التموضع الإبستمولوجي للباحث أو تبني مرجعيات نظرية و مفاهمية التي على أساسها يتم تناول المشكل المطروح (المنهجية المعتمدة)، فسعي الباحث لفهم و تفسير إشكالية معينة وفق تخصص معين يقوده لتبني مفاهيم مستوحاة من أطر نظرية و أدوات بحثية يختص بها هذا الحقل المعرفي ، هذا ما يعكس جهود الباحثين في مسعاهم لتحديد مسار بحوثهم العلمية في ظل تشعب موضوعات العلوم الإنسانية وإمكانية تناولها من زوايا متعددة . فإذا أردنا تناول ظاهرة العنف الحضري بالبحث و الدراسة أمكننا تناولها من زوايا مختلفة من الزاوية التاريخية أو السوسيولوجية أو السيكولوجية .

فإذا ما تناولت هذا الموضوع من الناحية التاريخية يقودنا الأمر لمعالجة مجموعة من ظواهر العنف المنتشرة في المناطق الحضرية عبر فترات زمنية مختلفة والعمل على مقارنتها من حيث أشكالها وغاياتها ضمن السياقات الاجتماعية والثقافية و الاقتصادية المنبثقة ، أما إذا أردنا تناوله من الناحية الاجتماعية فيمكن الرجوع إلى نظرية التهميش الاجتماعي التي تقر بسطوة مجموعات اجتماعية على فئات محرومة ، وفهم أسباب ما يصدر عنهم من أعمال للعنف و التي عادة ما تتجسد في شكل ثورات هوايتيه يراد من ورائها التعبير عن رفضهم لوضعية الاستعباد الذي يعيشونه .

أما إذا أرادنا تناول هذه الظاهرة من الناحية السيكولوجية فإن الأمر يقتضي منا إتباع منهج خاص يمكننا من التعرف عما يعيشه و يحس به كافة المشاركين من أعمال العنف ، فتحليل واقعهم اليومي على سبيل المثال يمكن أن يوضح لنا منشأ سلوك المناهضة و المطالبة بالحقوق المشروعة في ظل الإحساس بغياب العدالة. إن الطرح أعلاه هو محاولة لفهم كيفية تشكل الموضوع العلمي في ظل تشعب أبعاد موضوعات العلوم الإنسانية وعلوم الإعلام و الاتصال باعتبارها تنتمي لهذا الحقل العلمي ، فهي تقع تحت تأثير تجاذبات العديد من الأطر المنهجية و النظرية للعلوم الإنسانية التي تشاركها فهم هذه الظواهر . تأسيسا لما تقدم سوف نحاول من خلال هذه الورقة البحثية فهم هذه الحقائق من خلال الإجابة عن التساؤلات الآتية :

- كيف يتشكل الموضوع العلمي ؟
- ما سبب إقرار الباحثين في مجال العلوم الإنسانية عدم جدوى الفصل بين الدراسات التي تنتمي لمجال الإعلام و الاتصال عن باقي العلوم الإنسانية ؟

2- عدم تسليم العلوم الإنسانية بـ " الحقيقة العلمية "

إن الادعاء بوجود مواضيع دراسة تخص علوم الإعلام و الاتصال يعني التسليم بوجود مواضيع تستقل عن المقاربة العلمية التي تعمل على تأطيرها و دراسة خصوصياتها، فهناك من يرى أن موضوع " التكنولوجيا الحديثة "على سبيل المثال من المواضيع المفضلة في علوم الإعلام والاتصال و في ذلك تسليم "**بالموضع**

الإبستمولوجي الواقعي " فهل يمكن في هذا السياق القول أن المواضيع العلمية توجد فعلا خارج نطاق المقاربة العلمية ؟

يرى ألكس ميكيلي Alex Mucchielli ، و كغيره من علماء الإبستومولوجيا في الوقت الحالي أنه لا يمكن الأخذ بذلك فهناك خلط واضح بين " **الموضوع** " من المنظور العام و المشترك و بين مفهوم " **الموضوع العلمي** " ، بالعودة إلى موضوع التكنولوجيا الحديثة نجد أنه بإمكاننا تناول هذا الموضوع انطلاقا من مقاربة تاريخية أو سوسيولوجية أو سيكولوجية أو غيرها من المقاربات ، و الموضوع العلمي في كل مرة يتخذ منحى مختلف وفقا للإشكالية المطروحة و النظريات المعتمدة . و عليه فإن الموضوع العلمي لا يمثل الموضوع من المنظور العام و المشترك و إنما هو عبارة عن **بناء فكري** يتعارض مع " **الواقعية** ، مع ذلك فإن كل ما تقدمنا به يظل نظريا ، فهناك مواضيع دراسة قائمة بذاتها حتى قبل أن يتم تناولها علميا ، تحليلها يستدعي الانطلاق من ما هو موجود. (Mucchielli، 2006، صفحة 30)

لمزيد من التوضيح استشهد الباحث ألكس ميكيلي بتحليل.P. Daco لهذه الرؤية من خلال تناول موضوع واحد بتحليلات مختلفة ، و في كل مرة كان يتم فيها تغيير التموضع الابستمولوجي و طريقة طرح الإشكالية و النظرية و المفاهيم و المناهج المعتمدة لتقديم الظاهرة الاتصالية من زوايا مقاربتيه مختلفة .

3– تحليل المواقف الاتصالية :(Mucchielli, 2006, p. 32)

3-1- التحليل الأول للاتصال:

حاول داكو P.dacoتقديم رؤية لأبعاد الظاهرة الاتصالية من خلال تحليل الموقف الآتي :

مرت امرأة بجانب مجموعة من الرجال، فصفر إحداهم عليها تعبيرا عن إعجابه لها. ماذا حدث في هذا الموقف بالتحديد؟ يتسأل الكاتب. رأى هذا الأخير أن أساس " **تصفيرة الإعجاب** " هو الدافع الجنسي الذي يقود الرجال للتعبير عن غريزتهم تجاه المرأة وهو ما يراه أمرا طبيعيا وفطريا، فإذا ما افترضنا أن هؤلاء الرجال عبارة عن مخلوقات فطرية لا يعيرون اهتماما لمسائل الدين والأخلاق والحياة الاجتماعية أو احترام الغير ، فكيف تكون ردة فعلهم النابعة عن حالة أنا الأعلى يا ترى؟

يرى الكاتب أن غياب هذه المعايير قد تتسبب في ممارسة العدوان الجنسي على المرأة كما يحدث في حالات الاضطراب الجنسي الحاد الذي تتحرر فيه الطاقة الجنسية عن جميع القيود . لكن ما حدث هو أن هذه الدافعية تم توقيفها من طرف الأنا الأعلى و الذي عمل على تصفيتها و إخفائها قبل وصولها للوعي.

إن الدافعية الجنسية الحادة للرجل في مثل هذا الموقف تحولت إلى " **تصفيرة إعجاب** " ، و هي الحقيقة التي أدركها وعي الرجل ، غير أن مالم يعيه هو عملية " **التصفية** "التي حدثت بداخله . فقد عملت السلطة النفسية على فرض حضر على الاستهلاك الحر للرغبة الجنسية حيث دمجت جميع المحاذير الاجتماعية (الأنا الأعلى) لتمكنها من كبح جماح الرغبة و منعها من التعبير الحر باسم **مبدئ الواقع** (إذا قمنا بفعل ذلك الشيء قد نتلقى عقوبة) .إن هذا التحول هو نتاج ميكانيزم العمليات النفسية الداخلية (Berne, 1971, p. 100) التي عملت على تحويل الدافعية الجنسية المرتبطة بالميكانيزمات الدفاعية للانا إلى سلوك أكثر ارتقاء ،

فقد عملت هذه الأخيرة على تحويل الدافعية إلى تصفيرة إعجاب والتي يمكن اعتبارها تعبير اجتماعي مسموح به إلى حد ما . وعليه فإن الاتصال في هذا الموقف يتمثل في التعبير عن الرغبة في شكل اجتماعي مقبول.

نستطيع القول أن الاتصال (فعل التصفير) اتخذ تعريفا علميا بنائيا ، فمعنى الاتصال اتضح منذ الوهلة الأولى أي لدى عملية نقل الرسالة (الحاجة الجنسية) و لم يقتصر فهم معناها على التحليل النظري لفرويد و على فهم العمليات النفسية الداخلية فحسب ، بل كان لنموذج الإرسال (مرسل – مستقبل) الاتصالي دورا بارز في هذا التحليل و عليه فإن فهم الظاهرة الاتصالية يتحقق على ضو ء البناء الذي يجمع بين النظريات و المفاهيم المعتمدة (Brillouin, 1956, p. 252)، الأمر الذي يقودنا **للتساؤل فيما إذا كان هذا التحليل نفسي أم هو تحليل اتصالي ؟**

إن الموضوع (التصفير) لا يحدد لنا نوع المقاربة، بل المرجعيات النظرية والمفاهيم و المنهج التحليلي المعتمد و هذا ما يمكننا من الإجابة عن التساؤل المطروح ، فعالم النفس على سبيل المثال يمكن أن يمنح هذه الظاهرة عدة قراءات. انطلاقا من تعريف الاتصال تحديدا يمكن الذهاب إلى كون " **التصفير** " يعد ثمرة العمليات الداخلية التي بدأت بتعرض الرجل لمثير خارجي ألا و هو " رؤية المرأة " ، و محاولة تفسير ما يحدث يتحقق على ضوء النظرية العامة حول وظيفية الحالة النفسية وجل المفاهيم المرافقة لها و هنا نشير إلى نظرية فرويد للحاجات و لمفهوم الأنا و الأنا الأعلى .(Baby, 1992, p. 20)

إن المنهج المعتمد في تحليل هذا الموقف تمثل في التحليل النفسي و الذي يعتبر منهجا نفسيا صرف ، فالأمر يتعلق بـ " **التراجع الاستعاري** " l (la régression métaphorique) ، و هو مصطلح مستمد من التحليل النفسي الكلاسيكي تم اعتماده في هذا الموقف قصد فهم حقيقة ما يجري . (Mucchielli, 2006, p. 30)

كما أن الباحث في حقل علوم الإعلام و الاتصال من جهته ، و إن كان يبدو من الصعب تقبل ذلك يمكن أن يعتمد هذا التحليل ، بدليل أن العديد من المختصين في المجال الاتصال يعتمدونه في التسويق ، إذ يكفي الإشارة إلى كون نموذج مرسل – مستقبل هو نموذج يندرج ضمن علوم الإعلام و الاتصال و إلى أن مفاهيم التحليل النفسي (كالحاجة الجنسية و عملية **الارتقاء**) هي مفاهيم ملائمة مستعارة يمكن استعارتها من مجال علم النفس والاستعانة بها في تحليل الموقف الاتصالي خاصة و أنها تتلائم مع النموذج المرجعي .

إن رفض اعتبار هذا التحليل على أنه تحليل اتصالي يعني رفض جميع **الأولويات** التي يتوقف عليها هذا الأخير كرفض التموضع الإبستمولوجي الواقعي (رفض حقيقة وجود الحاجات ، و حقيقة أن المعنى هو بيان يعلن عنه في بداية العملية الاتصالية و المتضمنة في الرسالة) ويعني ا أيضا رفض استخدام نظرية الإعلام كخلفية لتحليل الظواهر الاتصالية .(Blanché, 1972, p. 124)

يتضح لنا من خلال المثال أعلاه كيف أن هذه النقاشات عقيمة و لا تجدي نفعا، فتقرير فيما إذا كان موضوع الدراسة يندرج ضمن حقل علوم الإعلام و الاتصال أو علم النفس يتوقف على رؤيتنا لموضوع الدراسة والتحديد المفاهيمي للموضوع (التعبير عن حاجة أو الاتصال حول طريقة التعبير عنها) إلى جانب تحديد طبيعة النظرية المعتمدة في الدراسة .

3-2- التحليل ثاني للموقف الاتصالي :

يحتمل الموقف الاتصالي المذكور أعلاه قراءة أخرى تختلف عن الطرح السابق ، فقد يكون الرجل قد عمد لوضع سيناريو اعتيادي يتبناه في مواقف اتصالية مشابهة ، فكلما كان برفقة أشخاص آخرين ساعده ذلك في التخلص من مخاطر الموقف و مكنه من البروز، و هذا ما يشجعه على معاودة هذا السلوك بالاعتماد على إحدى الألعاب التي يفضلها ألا وهي لعبة " **الظهور كنجم في الوضعيات التي تقل فيها الرهانات** " .

إن اللعبة العلائقية المتبناة في الموقف تعبر عن جملة التبادلات الملاحظة في مختلف المواقف الحياتية المشابهة و على الأرجح أن ما بدر عن الرجل من سلوك اكتسبه في مرحلة طفولته أو عن مختلف الخبرات التي اعترضته في حياته، فهذه التجارب علمته كيفية الاستجابة لبيئته (الأسرة و المدرسة و....) بما يلائمها و يلبي حاجاته في الآن ذاته ، وهكذا تعود الرجل على إعادة تكرار اللعبة كلما اقتضى الموقف ذلك لتتحول هذه القاعدة إلى جزء لا يتجزأ من شخصيته .(Berne, 1971, p. 120)

يقودنا ماضي الشاب إلى أصل تشكل " **اللعبة** " ، فهي تشمل " **محفزات خفية** " و تحمل " **فوائد ثانوية** " ، و للكشف عنها يقتضي الأمر البحث في المواقف الطفولية التي كانت وراء ميلاد هذا السلوك إلى جانب البحث في المواقف الحياتية التي كانت وراء إعادة تبني نفس السلوكات و محاولة الكشف عن الأحاسيس التي عاشها حينها، فقد نتوصل كتفسير لما يحدث إلى كون الأولياء يمثلان السبب الرئيسي وراء تبني هذه اللعبة فقد يكون الرجل قد عانى من تجاهلهما له مقارنة بما كان يحظى به إخوته من حب و اهتمام مما ولد لديه الإحساس بالتخلي عنه وعدم الاكتراث به ، و حتى يسترجع المكانة المفقودة أخذ هذا الأخير يبحث عن تصرفات تضمن له نيل الاعتراف ، و عن طريق المحاولة و الخطاء توصل إلى سلوكات غريبة و مستفزة واستثنائية يفتقر إليها إخوته و لحسن حظه أنها لقت استحسانا من طرف والديه مما بعث لديه الإحساس بالارتياح . وعليه يمكن تفسير سبب " الخوف " الذي انتابه عندما كان برفقة أصدقائه أنه الخوف من أن يفقد مكانته و اهتمامهم به ، الأمر الذي قاده لإعادة ممارسة اللعبة المعتادة حتى يلقى الاهتمام الذي يخاف فقدانه ، **فالمحفز الخفي** لسلوكه الاتصالي (التصفير) يتمثل في الخوف من الهجر و التخلي أما الفائدة منه فيتمثل في استرجاع الاهتمام والحظوة التي يحتاج إليها .(Brillouin, 1956, p. 50)

يمكن تفسير ما حدث مع الشاب إلى طغيان حالة أنا الطفل على تصرفاته الناجمة عن الخبرات المؤلمة والمتكررة التي عاشها في طفولته إلى درجة إغفال دور أنا الراشد و أنا الأب ، فالجانب الطفولي هو الذي يتدخل دائما في تأويل مثل هذا النوع من المواقف ، فما إن يقع الشاب في موقف مشابه حتى يتلقى رسالة من نوع : " **أنت لا تعني لنا شيئا في هذا الموقف** " (الرسالة الأولى) . إن هذه الرسالة تتسبب ، و لا ريب ، في ترك ألم عميق في نفسية الشاب لكونها تنبع عن **انا الأب** المتعلق بالأشخاص المتواجدين في الموقف ، الأمر الذي يدفعه للاستجابة على النحو الذي يخلصه من ضغط الجانب الأبوي و ينال اعتراف الآخرين به كأن يتلقى رسالة من

نوع : " **نعم نحن نهتم لشأنك** " (الرسالة الثالثة) ، أما عن أسلوب تحقيق هذا المبتغى فقد يكون غريبا بعض الشيئ فقد رأينا كيف ان الشاب يحاول التخلص من المواقف الصعبة و المزعجة بتبني سلوكات غريبة و غير متوقعة كأنما ينشد من ورائها الخلاص من الشحنة العاطفية السلبية التي تضمنها له حالة أنا الطفل ، فما يتوقعه في هذه الحالة هو تلقي رسالة من نوع : " **انظروا كم أنا مهم** " (الرسالة الثانية) .

إن التصرف على هذا النحو جاء كمحاولة منه للتخلص من الضغط النفسي الذي يعيشه في العديد من المواقف المشابهة و التي عادة ما يتسبب فيها الأشخاص الذين يحيطون به ،فاستحضاره للجانب الطفولي وتفاديه الواضح للمنطق و الحكمة الكامنة في ذواتهم ما هو إلا تعبير عن رغبته في استمالتهم و نيل اهتمامهم (الرسالة الثالثة) .وهذا ما يطفئ نار قلقه من أن يقابل بالرفض. (Mucchielli, 2006, p. 30)

حسب رأي أن التأويل النظري للاتصال (تصفير الإعجاب) عرض في هذا السياق من منظور نظرية مرجعية ضمنية حاولت تقديم تفسير حول عبقرية العادة السلوكية و قدرتها على التعاطي مع نمط معين من المواقف الحياتية التي يعيشها الفرد ، و يكون لها وقع على نفسيته ، و تدفع به إلى تجزئتها وتحديدها في بيئته وفقا لتصور ينبثق عن المواقف الأصلية التي كانت وراء توليد حساسيته . و من الملاحظ أن الرغبة في فهم السلوك الاتصالي تستدعي تواجد الفرد و الموقف في كل مرة.

من الأمور الأخرى التي ينبغي تأكيدها في هذا الموقف هو ضرورة دعم الملاحظة الأولية بملاحظات أخرى،كأن يتم ملاحظة كافة السلوكات من نفس النوع (تحريض فكاهي) في المواقف المشابهة دون التركيز على ما يحدث في مكان و زمان بعينه فالمطلوب يتعدى حدود الكشف عن الميكانيزمات النفسية الداخلية ، بل أن يتمكن الفرد من إيجاد أوجه شبه بين مواقف سلوكية مشابهة . إن الذكاء الذي ولده الموقف لم يكن استنتاجيا فحسب (بفضل العودة لنظرية الجهاز النفسي الداخلي و التحليل النفسي)، بل استنباطيا أيضا (القدرة على تشكيل مخطط رسمي حول الموقف و السلوك).(Blandi, 2002, p. 285)

نلمس من خلال ما تقدم فردانية واضحة للسلوك مقارنة بالموقف الذي سبق عرضه، فالتفسير الذي تم التوصل إليه في الموقف الأول ينطبق على جميع أعضاء المجموعة الذين يشتركون في نفس البنية النفسية ، أما السلوك الملاحظ في الموقف الحالي فيعكس سلوك الفرد المرتبط بتجاربه الشخصية التي مكنته من تشكيل دور في موقف معين ، هذا الأخير الذي تحول إلى جزء لا يتجزأ من شخصيته .

فهل يمكن اعتبار هذا التحليل نفسي أم اتصالي ؟

لطالما أثارت هذه المسألة جدلا بين أوساط الباحثين وكل طرف ينطلق في بناء حججه على الموضوع والنظريات والمفاهيم المرجعية و التموضوع الإبستيمولوجي و منهج الدراسة الذي تم اعتمده ، الأمر الذي ينتهي بهم في أغلب الأحيان للوقوع في انزلاقات حججية تبعث على التناقض ، فعلى سبيل المثال هناك من يعتبر أن موضوع الاتصال الشخصي لا يمد لحقل علوم الإعلام و الاتصال بصلة ، بينما يؤكد آخرون أنه طالما هناك تفاعل ولعب بين الفاعلين نكون بذلك قد اقتحمنا هذا المجال . كما يمكن أن يرفض هذا الرأي بحجة التطرق لمفاهيم حالات الأنا (الأب و الراشد و الطفل) وهي مفاهيم مستقاة من التحليل النفسي .

و في هذا السياق نرى أنه يتعذر الفصل في هذه المسألة خارج نسق تموضع – نظرية / مفاهيم– منهج– موضوع و الذي يعتقد أنه ملائم لتقرير فيما إذا كان موضوع ما يندرج ضمن حقل علوم الإعلام والاتصال أو خارجه و إلا يصبح من غير المنطقي إثارة نقاش حول موضوع يثار حول معايير غير قابلة للنقاش .

3-3- التحليل الثالث لنفس الموقف الاتصال :

إن تحليلنا لنفس الموقف الاتصال(تصفير أحد الرجال على امرأة مارة من أمامه) يبدو من الأمور المستحيلة أمام غياب المعطيات الأساسية والهامة التي تسمح لنا بالحصول على فكرة شاملة حول حقيقة ما يجري، فالمعطى الذي بين أيدينا ما هو إلا السلوك النهائي الملاحظ حيث تغيب عنا حقائق كثيرة حول نسق الاتصال وطبيعة التفاعلات بين مختلف الأطراف الحاضرة في الموقف فضلا عن غياب تاريخ التفاعلات باختصار نحتاج لعناصر أخرى نرتكز عليها في الملاحظة .

يتعلق الأمر هذه المرة بمجموعة مؤلفة من خمسة أشخاص يعملون في نفس المؤسسة شاركوا غيرهم ملتقى حول الاتصال المؤسساتي، اثنان منهم يعرفان بعضهما بشكل جيد ويشغلان مناصب قيادية في المؤسسة التي يعملان بها (رؤساءأقسام) بينما الآخرون التقوا عشية الملتقى ولا تصلهم علاقة قريبة.

بعد مضي وقت طويل عن أشغال الملتقى خرج خمستهم في نزهة قصيرة أرجاء المدينة التي أقيم فيها الملتقى بغية الترويح عن أنفسهم ولم يكن دافع خروجهم سويا الترفه فحسب ،إنما ما جمعهم في حقيقة الأمر هو التقارب الوظيفي .

تؤثر رؤساء المصالح بمراكزهم القيادية لم يتوقف عند حدود الأدوار الوظيفية التي يؤدونها ، بل طال حتى علاقتهم بالمشتركين في الملتقى فمن جملة ما تم تسجيله من ملاحظات ، تقديمهم الملاحظات للمنشطين المكونين مبادرتهم لتلطيف الجو في حال وقوع حدث طارئ ، تقديم بعض النكت ، .....و غيرها من الأفعال التي كانت أساس تكوين نظام علائقي خاص بمجموعة المشتركين ، يقودها رئيسي المصالح اللذان يعرفان بعضهما بعضا واللذان يبادران دائما للتعامل مع الوقائع غير المرتقبة بالمزاح و نشر روح الفكاهة .

هذا ما يفسر مبادرة إحداهم للتصفير على فتاة مرت من أمامهم مرتدية تنورة قصيرة ، ضاربا كوع زميله ملفتا انتباه هذا الأخير ، و من باب ضمان التفاف البقية حول الموقف بدأ بتقديم بعض التعليقات المضحكة باتجاههم متوقعا استجابتهم و تصعيدا للموقف .

إن تفسير فعل " التصفير " و سببه و أبعاده يتحقق فقط في ضوء الحصول على الوصف الكامل للموقف ، فهذا السلوك ما هو إلا نتاج نظام معقد من التفاعلات التي تم وضعها من طرف أعضاء المجموعة أمام ظهور عنصر غير مرتقب في بيئتهم ، فما أن يظهر هذا الأخير على السطح حتى تبدأ التفاعلات المتوقعة في العمل . كأنما هذه التفاعلات تملك قوة كامنة بداخلها تدفعها للظهور و العمل بنفس الطريقة كلما ظهر حدث غير متوقع . كما يستدعي تحليل هذا السلوك العديد من العناصر التكميلية المرتبطة بالتفاعل و غايات النسق العام للتفاعلات بعيدا عما يحدث من عمليات نفسية داخلية ، فالملاحظ هنا أن شخصيات الأفراد المتعارفة ملغاة تماما، لكونهما يتبادلان الأدوار ضمن نسق التفاعلات الخاص بالمجموعة و بيئة التفاعل ، فإذا لم يبادر

الأول بالتصفير لكان زميله فعل ذلك عنه تاركا المجال لزميله الأول لتقديم تعليقات هزلية مع إشراك الثلاثة الآخرين في هذه التفاعلات .

فعل الاتصال وفقا للموقف المشار إليه يتخذ خاصية متفردة تصنع تميزه، فهو نتاج جل ما حدث في الماضي وعمل الفاعلون على إعادة إنتاجه في الزمن الحاضر، و أثناء هذه التفاعلات تتدخل شخصية الأفراد لتمنح شكلا خاصا لنسق التفاعلات و تحوله إلى " **بنية اتصالية** " (نسق التفاعلات) تنصهر فيها جل تدخلات الفاعلين مما يستوجب على كل فرد العمل على تحوير محتوى تدخله ليتكيف مع شكل و مسار التفاعلات ، و عليه نخلص لكون الاتصال عبارة عن **عملية مشاركة في بنية اتصالية** .

إن الرؤية النسقية للاتصال تفترض أن الاتصال يمكن دراسته من منطلق التصنيفات العامة للتفاعلات (التأكيدات ، الإقصاء ، التهميش، ..) ، و ما يهمنا أيضا في هذه الرؤية هو تحليل قاعدة اللعب التي يستحضرها الفاعلون في المواقف المشابهة ، ما يعني أن دراسة الظاهرة الاتصالية هي أيضا دراسة " **لقاعدة الألعاب** " المتبناة من طرف فاعلي الموقف الاتصالي . (Bateson, Birdwhistell, Goffman, hall, Jackson, & all, 1981, p. 36)

تأسيسا لما سبق نخلص إلى كون الظاهرة الاتصالية تشكلت استنادا إلى مرجعيات النظرية النسقية للاتصال والتي تقودنا لتعريف جديد للاتصال فهي " **جزأ من نسق اتصالي مبني بفعل تفاعلات مجموعة من الفاعلين من أجل مواجهة موقف معين ، و الاتصال من هذا المنطلق يستمد معناه من نسق التفاعلات الجماعية . و يساهم في تحديد الموقف و التذكير بتموضع الفاعلين فيه و غايتهم من وراء البحث عن المتعة و الترفيه الذي يميز اللعبة الجماعية** " و النقطة التي تثير الجدل حول هذا التحليل ، و تفرض نفسها في كل مرة ، هل يمكن إدراج هذا التحليل ضمن حقل علوم الإعلام و الاتصال أم خارج هذا الحقل ؟

إذا كان الموقف ارتكز بالأساس على النظرية و المفاهيم المستقاة من النظرية النسقية للاتصال، فإنه ومع ذلك يتوضع في مجال علم النفس الاجتماعي. إن النظرية النسقية للاتصال و مصطلحاتها (من حيث التأطير، التفاعل ، البناء الجماعي للعب اللعبة ، منطق اللعب ، مسار التفاعلات ، ...) في الحقيقة لا تنتمي لحقل علوم الإعلام و الاتصال بل هي نظرية عامة تكرس لخدمة مختلف التخصصات .

في هذا السياق قد يتساءل آخرون بما أن الأمر كذلك لماذا لم يحلل الموقف انطلاقا من مصطلحات تستمد من علم النفس الاجتماعي، كان بالإمكان مثلا تحليل سلوك أعضاء المجموعة التي خرجت للتفسح من منطلق علاقات الود التي تصلهم ببعضهم البعض (العلاقات السوسيومتيرية) ، أو من منطلق التنافر المعرفي (بناء معيار جماعي) أو الحاجات الداخلية للمجموعة (التماسك ..) أو بنية المجموعة (القيادة ، التابعين ، الحلف ، ...) أو ...إلخ ، لكنه لم يتم ذلك لأنه كان ينظر للمجموعة في كليتها ، فهي مشكلة من أعضاء كل منهم يشغل مكانة خاصة داخل بنية بعيدا عن شخصيتهم القاعدية .

إن هذا التحليل يقودنا للمصطلحات التي توصلت إليها مدرسة بالوا آلتو و هي مدرسة متخصصة في مجال علم النفس الاجتماعي الإكلينيكي، وقد تم إدراج مصطلحاتها تحت نظرية خاصة بعلوم الإعلام و الاتصال

ألا و هي النظرية النسقية للاتصال. (Bateson, Birdwhistell, Goffman, hall, Jackson, & all, 1981, p. 36)

3-4 التحليل الرابع لنفس الموقف الاتصالي :

سعى الرجل من خلال فعل التصفير الموجه للمرأة في حضور شركائه إلى اقتراح " **تعريف للموقف** " و للعلاقات المستقبلية، فبالنسبة للمشتركين في الملتقى ، كان الموقف بمثابة فترة الاستراحة التي يتجاذبون فيها أطراف الحديث وتتعالى فيها الأصوات بعد مرور يوم شاق من العمل الجاد ، أما الفعل الاتصالي في حد ذاته فيحمل اقتراحا للفاعلين للنظر للمرأة المارة من أمامهم على أنها مخلوق جذاب جنسيا لا يتعين عليهم إعارتها الاهتمام اللازم .

من المؤكد أن الأمر يختلف إذا ما تعلق الأمر بزوجة إحدى الزملاء ، فقد يصفر عليها بشكل مختلف ، كما بإمكانه مجاملتها أو العمل على استفزازها قصد الاستمتاع بحالة تضايقها ، و هذا يعني تقديم تعريف مغاير للموقف . كما يتجلى من خلال هذا التحليل أن هذه الطريقة في الاتصال ترتكز على " **معرفة معيارية قاعدية** " تسمح لجميع أطراف الموقف الاتصالي من تأويله على نفس المنوال .

إن القاعدة المتفق عليها ، و إن تستمر ، سوف تسمح للاتصال من استكمال مساره و تحقيق الفهم المشترك بين المشاركين شريطة أن يندمج الجميع في قاعدة اللعب التي عمل الرجل على إرسائها و التي تعتمد في جوهرها على طريقة اللهو ، فقد توقع الرجل بسلوكه ذاك مجريات معينة للأحداث (تصعيد الزملاء للموقف ، و مرور المرأة أمامهم في مشهد استعراضي) ، كان بإمكانه مثلا اقتراح رؤية مغايرة للموقف كأن يحاول بعث جو التسلية فيهم بالتركيز على دورة التكوين و استغلال مختلف المشاهد التي عاشوها سويا ، كالتعليق على منشط الدورة أو أحد المشاركين .

ما حدث في الواقع يعكس وجود تفاوض ضمني (négociation implicite) تجسد بفعل التفاعلات، ففعل التصفير بالنسبة للمرأة هو بمثابة تصرف يخالف المعايير الاجتماعية السائدة في ثقافاتهم و هو ما يرتكز عليه أي شكل من أشكال الاتصال الاجتماعي ، و يعني الرجل بذلك السلوك أنها تبدو جذابة جنسيا و أنه ، و إن شاءت ، بإمكانها الدخول معه في حوار بخصوص هذا الموضوع (الجاذبية الجنسية) ، كما يدل سلوكه على انه غير جاد فيما بدر منه من تصرف و أنه كان يطغى عليه المزاح الصاخب ، و في هذه الحالة أيضا كان مجال الخيار مفتوح أمامها بأن تقبل بالدخول معه في هذا الحوار من عدمه .

أراد الرجل من وراء فعل التصفير و حالته النفسية التعبير عن طريقة معينة من بين الطرائق الممكنة عن الفسحة التي جمعته بزملائه بعد يوم شاق من العمل و اقترح عليهم تقبلها بشكل ضمني ، فالتصفير كان بمثابة

نقطة الانطلاق للشروع في **الاتصال التفاوضي** الذي يستمر إلى غاية تشكيل رؤية جماعية للحياة و اقتراح طرائق مختلفة للتكيف معها .(Berne, 1971, p. 35)

يختلف هذا التحليل عن التحليلين السابقين، فالاتصال في هذا السياق لا يعبر عن رغبة ذاتية أو حالة من حالات الأنا الخفية التي تختلج الفرد وتعكس ماضيه ، بل هو عبارة عن نظام تبادلات آنية تحدد لنا شكل التفاعلات المتكررة التي تحاك لتقودنا لتاريخ الفرد الفعلي بعيدا عن ذاتيته، ومن تجليات هذا النظام أيضا تشكل اتفاق بين المشتركين حول وضع تعريف للوضعية الاتصالية على أنها وضعية لهو اشترك كل منهم في تحديد معالمها.

لا يقتصر هذا التحليل على تحليل المحتوى الفوري للاتصال ، بل يسعى لتوضيح الخلفية المعيارية ، التي يرجع إليها المشتركين دون دراية منهم في غالب الأحيان ، فموضوع الاتصال إذن يكمن في شرح المدلولات المعبر عنها من طرف الفاعلين الذين يعملون على تؤويل رؤيتهم للعالم من خلال التبادلات التي عملوا على إرسائها سوية انطلاقا من رصيدهم المشترك ، فالاتصال على هذا النحو يتخذ شكل **البناء الجماعي** . (Bateson, Birdwhistell, Goffman, hall, Jackson, & all, 1981, p. 37)

يتجلى لنا من خلال هذا التحليل أن الاتصال عبارة عن بناء فكري يقوم على الحوارات التي تجرى في الفضاء العام و المعياري المشترك بين جميع المشاركين من أجل تحديد ماهية الموقف والإشكالية التي يطرحها والإجابات الجماعية التي يحملونها لهذا الموقف. إن التحليل السابق و الذي شمل الحديث عن مفاهيم عدة من بينها : الموضوع و التفاوض الجماعي يجعلنا نتسأل مرة أخرى هل يمكن إدراج هذه الرؤية ضمن تخصص الإعلام و الاتصال أو ضمن علم النفس الاجتماعي ؟ وهل يمكن تطبيق نظرية و مفاهيم المقاربة الفلسفية على مواضيع الإعلام و الاتصال ؟

3-5-التحليل الخامس لنفس الموقف الاتصالي :

فلنفترض هذه المرة أن مجموعة المشاركين عارضوا من يفوقنهم رتبة فيما يخص فعل " التصفير " ، من المؤكد أنه سينقسم المشاركون إلى مجموعتين ، المجموعة القيادية المسيطرة و مجموعة التابعين و في هذا الانقسام تأكيد واضح على وجود فارق رتبي بين المجموعتين .

إن الرهان الغالب في هذه الوضعية يتجلى في " **التسلية** " و هذا ما يتضح من خلال ضحك الجميع على المرأة المارة من أمامهم على إثر مبادرة أحد الزملاء ، مع ذلك فإن هذا التصرف يعد تجاوز للسلوك الحضاري و يتعارض مع الوضعية الانطلاقية التي تنهى التصفير على النساء في الشارع لكونه يعتبر سلوك يتنافى مع اللباقة كما أنه تصرف مبتذل .

في بداية الموقف كل شيء كان يبدو عاديا مجرد تجوال في شوارع مدينة صغيرة، و من الطبيعي أثناء التجوال نصادف أناس نتبادل معهم النظرات ، لكن من غير المسموح ، و حسب العرف الاجتماعي الغربي السائد ، إمعان النظر فيهم فهذا يخالف قواعد الأدب المعمول بها و الإصرار على ذلك يحمل دلالة اتصالية خاصة في الثقافة الغربية ، فإطالة النظر في الغير يعني أننا نود التوجه إليهم بالكلام أو أننا نتوقع منهم الاستجابة للأهمية التي نوليها لهم أي أننا نرغب في إقامة علاقة أخرى غير علاقة اللامبالاة . و فعل التصفير في هذا المقام يحمل بعدا يفوق مجرد الاهتمام، فهو يعبر عن شكل اتصالي يستمد معناه من السياق **الزماني و التاريخي** لهذه الثقافة ، هاته الأخيرة الذي يتم استحضارها بفعل التصفير.

فكرة النظرة المبتذلة للمرأة التي أسندت لها ، لم تأتي من عدم فهي نتاج عملية مقارنة أجرها الرجل بين ما يجري في الموقف الراهن و بين ما كان يحدث فيما مضى ، فلم يكن ينظر لها على أنها كائن يتساوى في الحقوق مع الرجل مما يدفع بالجنس الآخر بالنظر إليها نظرة احتقار و دونية (المعيار القديم السائد) ، و كل ما فعله التصفير هو العمل على إيقاظ هذا التصور الذي يقلل من شأنها و مكانتها و العمل على إسقاطه على الموقف الحالي ، ما يعني أن مجريات اللقاء في شارع المدينة لم تكن عادية ، إذ أن مجموعة الزملاء تعمدوا التصفير على المرأة للتعبير عن رؤيتهم الدونية لها للتحول إلى موضوع عبث و تسلية و هذا ما يمثل الرهان الجماعي للمجموعة .

إن مسألة إقحام معيار فيه تصغير لقيمة المرأة في الموقف أحدث تغييرا واضحا في تموضع الفاعلين فيه ، فمرور المرأة في الوضعية الانطلاقية لم يحدث أي تغيير في مكانة فاعلي الموقف في البداية حيث تساوى الجميع (كل من الرجال و المارة و المرأة) في المكانة ، لكن ما أن وصلت أمامهم ووقع فعل التصفير حتى أخذت الأمور تتغير و تغير معها تموضع الفاعلين ليتقلد الرجال وضعية " المسيطرين" و تراجع تموضع المرأة إلى للمرتبة الدنيا . و قد أيقنت هذه الأخيرة أن الأولوية الاتصالية سيطر عليها " الشارع " ، فالمعيار الاجتماعي الذي يحكم الشارع يعتبر الأقوى و الأكثر سلطة على المعيار الشخصي للمرأة، فإذا كانت هذه الأخيرة ترغب في إثبات ذاتها من خلال إرسال رسائل من نوع " عليا أن أشد انتباه الرجال " استدلالا بتصفير الرجل ، فإن ذلك يظل مجرد معيار شخصي تولد عن رغبتها في منح الاعتبار و القوة لذاتها باستغلال معطيات الموقف ، فبالنسبة لها مدلول التصفير يحمل رسالة من نوع " أنا أحظى بالاهتمام إذن أنا أحمل قيمة " ، غير أن هذه القراءة قد تخفق وتصطدم بمنطق الشارع .

و عليه فإن دراسة ما يحدث على أرض الواقع يستلزم منا فهما معمقا لعوالم الفاعلين بتحليل سلوكياتهم الدلالات الاتصالية التي يضفونها على الموقف ، ما يعني حتمية تناول الظاهرة لا في شكلها العام فحسب بل انطلاقا من مختلف السياقات التي تساعد في التوصل للمعنى الحقيقي للاتصال .

يرتبط هذا التحليل ارتباطا وثيقا بنظرية الإنتاج و الاستخدام الاجتماعي للمعاني ، و التي تعد من المسائل الهامة التي تحتاج إليها علوم الإعلام و الاتصال ، و تسلم هذه النظرية من أن سلوكيات الفاعلين الاجتماعيين تحكمها المعاني التي يضفونها على الأشياء ، ما يعني أن دراسة المعاني و المدلولات تعد من أولويات هذا العلم ومعنى الرسالة الاتصالية ينبع عن العلاقة التي يقيمونها بين ما يجري و يقال على أرض الواقع و بين التأويل الشخصي للموقف . وتقودنا هذه الرؤية النظرية إلى حقيقة هامة مفادها أن المدلولات لا تكمن في " الرسائل " ، بل نجدها محتواة في التفاعلات و مع مختلف السياقات الموقفية الأساسية التي يتعين إدراك سيرورة تكوينها .

6- خاتمة :

ختاما نقول أن فهم الظاهرة الإعلامية و الاتصالية يتوقف على الزاوية التي يود الباحث أن يقارب بها موضوعه فقد يفضل تفسيرها من منطلق نموذج الاتصال (مرسل / مستقبل) على أساس أن فعل التصفير هو فعل اتصالي يتوقع منه المرسل (الرجل) استجابة معينة ، و تحليل " رجع الصدى المتوقع " يقودنا حتما لنماذج التحليل النفسي و البنية الداخلية للفرد قصد تبرير سبب تبني المرأة (المستقبل) لسلوكات معينة دون أخرى . كما يمكن مقاربة ذات الموضوع من منطلق علم النفس الاجتماعي باعتبار أن فهم حقيقة ما يجري في سياق معين يلزم الباحث تحليل التفاعلات التي تجري بين الفاعلين حول الموضوع قصد تبين المعاني المشتركة التي عملوا على إنتاجها و التصرف على أساسها . و قد تقوده معطيات الظاهرة التركيز على " المواقف " و مجرياتها و طرق إعادة إنتاجها في المواقف المشابهة حرصا منه لفهم حقيقة ما يجري و بناء قاعدة تنبؤية للسلوكات المستقبلية بالتالي إمكانية التحكم في الاتصال .

و عليه نرى أنه من الصعوبة بمكان أن نسعى لشق طريق مستقل لعلوم الإعلام و الاتصال عن باقي العلوم الإنسانية ، فكل ما يتعين على الباحث فعله هو السعي لخلق خصوصية لموضوعه العلمية بإختيار ما يلائم الزاوية التي يود أن يعالج منها الموضوع بانتقاء ما يلائمها من مقاربات و مفاهيم و أدوات بحثية ومناهج . .

قائمة المراجع :

Alex Mucchielli.(2006), étude des communications:nouvelles approches .France: Armand Collin .30 ،*édition ème2*

B Bland.(2002).La construction sociale par ses objets .PUF, France

Baby, A. (1992). Atravers le chaos épistémologique ou comment la théorie des deus sacs permet de faire un bilan sommaire de la recherche qualitative. *6 , association pour la recherche qualitative*,

Bachelard, G. (1967). la formation de l 'esprit scientifique. contribution à une connaissance objective. *5 éme édition*. biblothèque des textes philosophiques.

Bateson, Birdwhistell, Goffman, hall, Jackson, & all, a. (1981). La nouvelle communication. France: Seuil.

Berne, E. (1971). analyse transactionelle et psychothérapie. Suisse: Payot.

Blanché, R. (1972). L'épistimologie. *2 ème édition* , France: PUF.

Brillouin, L. (1956). La science et la théorie de l information. France: Masson.